باب الاخبار والآراء

العرب والترك

قد علم قراء المنار ان السعي في حسن التفاهم بين العرب والترك قد كان أحد القصدين الجليلين من رحلتنا الى دار السلطنة في آخر الخريف حيث يعود المصريون منها ومن سائر البلاد التي يصطافون فيها لقضاء فصل الشتاء بمصر التي لا يفضل شتاءها شتاء ، وعلموا أيضا انه كان من السعي زيارتنا لصاحب جريدة (إقدام) ومعاتبته على ما كتب في شأن العرب وعرض مقالات عليه في حسن التفاهم بين العنصرين اللذين هما قوام الدولة العثمانية ووعده بنشرها ولكن اكثرهم لا يعلمون أن صاحب إقدام نشر ثلاثا من تلك المقالات وامتنع عن نشر ثلاث: نشر المقدمات وامتنع عن نشر المقصد الذي فيه بيان أسباب سوء التفاهم وطرق تداركها وتلافيها ومنها مسألة تنقيح اللغة التركية وحذف الالفاظ العربية منها وما سمع عن جريدة إقدام من سوء التعبير فيها . قال في بيان سبب امتناعه عن نشر المقالة الرابعة إن هذه أمور ملية تتعلق بنا (أي بالترك) فليس له حق في البحث فيها !!

وقد استمر على نفثاته الجنسية بقلمه وقلم اعوانه حتى نشر مقالة من مقالات عن اليمن بامضاء (خليل حامد) وهو امضاء مستعار لأحد الضباط هنا وقد جاء في هذه المقالة من الطعن في العرب انهم - في زعم الكاتب - بمقتضى طبيعتهم يبيعون بالمال كل شيء حتى أعراضهم !! . وقد قامت لهذه العبارة قيامة العرب الذين هنا حتى ان بعض الشبان استفزتهم حمية الغيرة على العرض التي لا يدانيها العرب فيها شعب من شعوب الارض فدفعتهم عند قراءة هذه العبارة والدم العربي يتبيغ في أجسامهم الى إدارة جريدة إقدام وإهانة صاحبها وتحقيره على نشر هذه السفاهة حتى قيل انهم بصقوا في وجهه ولا عجب فصاحب الغيرة على العرض قد يقتل من يطعن في عرضه عند ما يفاجئه ذلك

والقوانين تعذر من تدفعه الحمية العارضة للدفاع عن عرضه اذا أطاعها من فوره ولا يعد هذا الدفاع منكرا قبيحا كسائر أنواع الاهانات الا من لم يعرف للغيرة على العرض معنى

نحن لانقول ان الاعتداء أو الاعتيات على المحكومة في القصاص أمر حسن مشروع وانما نقول ويقول العقلاء كافة ان فرقا عظيما بين اعتداء مبتدأ لايدفع له الطبع و بين مؤاخذة فورية لم توطن عليها النفس

وكيف يستنكر من فتيان العرب مثل هذه الغيرة التي لا رأي لهم فيها ولا روية وقد اضطربت لهذا الطعن اعصاب الكهول والشيوخ من المؤمنين كغيرهم حتى أن بعضهم اصابه الصداع ولم يستطع في ذلك المساء تناول الطعام وذهب وفد منهم الى الصدر الاعظم وكان في مجلس الوكلاء فأرسلوا اليه فخرج اليهم ووعدهم هو وناظر العدلية بتدارك الأمر وإحالة أحمد جودت بك مدير إقدام على ديوان الحرب العرفي لتعطيل جريدته ثم محاكمته في العدلية وقد حكم الديوان بتعطيل جريدة إقدام الى أجل غير مسمى ولكنه لم يلبث أن أصدرها وكتب فوق كلمة اسمها كلمة (يكي) اي جديدة او الجديدة ، وناهيك بهذا من عقوبة !! وحكم عليه أيضا بمئة ليرة غرامة غرمها . وقد علم ديوان الحرب ان الناس صاروا يسخرون من تعطيل الجرائد لأن من عطلت جريدته صار يصدرها باضافة لفظ (يكي) اليها فقرر أنه لايجوز لمن يحكم هو بالغاء جريدته ان يصدر جريدة ما الا باذن منه ولكن هذا القرار لم ينفذ على جريدة إقدام !

وقد كتب احمد بك جودت مدير إقدام عند ماعطلت جريدته مقالة نشرها في جريدة (طنين) اعتذر فيها عن نفسه ولكن كان عذرا أقبح من ذنب فانه فشت فيها سموم التغاير والتدابر بين العرب والترك بايهامه القارئين لها ان العرب يتهمونه بأنه مندفع لعداوة العرب بجنسيته التركية ويرون أن الترك اعداء العرب وانتقل من هذه الدسيسة الى الامتنان على العرب بفضل الترك عليهم وذكر من هذا الفضل مايعلم هو انه في غير محله فالظاهر انه يريد بذلك ان يقوم كتاب العرب للرد عليه و إنكار ماقاله مخالفا للتاريخ ليتسنى له ولامثاله حينئذ ان يوسعوا الخرق ويقولوا ان

العرب محتقرون الترك . ونحن لم نسمع أحدا من العرب يقول ان مدير إقدام يذم العرب بإغراء الترك أو رضاهم

ادعى صاحب (إقدام) في مقالته هذه ان جريدته هذه ليست جريدة عنصرية ولا ترجح الترك على غيرهم من العثمانيين وان جميع الاجناس يعترفون له بذلك . والمشهور خلاف ذلك وانه ما وجدت جريدة تركية أساءت الى العرب أو أغضبتهم كما أغضبتهم جريدة إقدام فهي أشهر الجرائد في التعصب الجنسي ولاجل هذا التعصب لم تنشر مقالاتنا التي طالبنا فيها بانصاف العرب وحسن التفاهم بينهم وبين إخوانهم الترك والا فما هو عذره ولماذا أخلفنا وعده ؟

قال بعد تلك المقدمة التي مدح بها نفسه وبرأها كما شاء « فالقول بأن التركية هي التي دفعت جريدة إقدام لكتابة تلك الفقرة هو اتهام للترك كلهم » فانظر الى هذه النتيجة الخاطئة من تلك المقدمات الباطلة ،

ثم قال « نعم ان الترك فدوا في اليمن وغيرها مئات الالوف من أولادهم فهذا الفداء ليس لأجل ان يفترقوا عن العرب بل بالعكس يقتضي محبة الاتحاد معهم !! والتاريخ يشهد لنا بأن الذي خلص جزيرة العرب من استعمار الاجانب لها في أيام الصليبيين انما هي دماء الترك وذلك خدمة للاسلام ، والعرب لا تنسى ذلك الى يوم القيامة !

« ونقدر أن نقول بعبارة عامة ان الترك بذلوا أرواحهم في سبيل العرب ! !

بناء على ذلك كيف يكون الترك خصماء للعرب وسالكين سبيل الحاكمية العنصرية؟ فهل هذه التهم هي مكافئة على الدماء التي أراقها الترك في سبيل العرب ؟؟ وهل بعد هذا يكون القول بأن صاحب إقدام عدو للعرب موافقا للمنطق ؟ » اه

الترك أخوة العرب في الدين وفي تكوين هذه الدولة التي هي تراث الاسلام في الحكم والسلطان فاذا قلنا ان صاحب إقدام جنى على التاريخ بزعمه ان الترك انقذوا جزيرة العرب من الصليبيين لانكون بابطال الباطل نا كثين للفتل الذي جعلنا مع الترك أمة واحدة . وكل من يعرف التاريخ يعلم ان جزيرة العرب كانت

طول الزمان في امان من الافرنج وأما ماأخذوه من سواحل سورية فقد انقذه منهم المسلمون كافة لا الترك خاصة .

واذا قلنا ان سوء سياسة الدولة في سفك دماء العرب في اليمن لا يسند للترك على العرب لانكون مخلين بحقوق هذه الاخوة لا لأن الدماء التي سفكت هناك بأمر قواد الترك وحكامهم هي دماء العثمانيين من الترك والعرب والارناؤط والكرد بل لأن سفكها كان من جهل أولئك القواد بالسياسة وحسن الادارة وقد خربت بلاد العرب ولم تعمر بلاد الترك على ان البلاد كلها مشتركة لان الامة واحدة

كان من فضل الاسلام ان الترك بعد ان تشرفوا به لم يكونوا يعملون لأجل عنصرهم ولا لأجل عنصر العرب ، وإنما يعملون لأجله كما أخذوا عن اساتذتهم العرب حتى قام أمثال صاحب إقدام من متفرنجي هذا العصر يصخون الآذان كل يوم بما يثير العصبية الجنسية ويضعف الرابطة الاسلامية وهم يجنون على دولتهم من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون ويخشى ان يعلموا سائر العناصر العصبية الجنسية وقد ظهرت بوادر ذلك وهو اكبر خطر على هذه الدولة فنسأل الله تعالى ان ينقذها من شرور هؤلاء الأشرار بمنه وكرمه

ثم ان صاحب إقدام اورد بعد بيان هذه المنن التي في رقاب العرب للترك موازنة بين مانشره عن ذهول (كما ادعى) من الطعن في أعراض العرب ماضيهم وحاضرهم وآتيهم و بين إهانة بعض طلاب العرب له في ادارة جريدته وزعمه انهم اهانوا عند ذلك الامة التركية كلها اهانة لم يسمع بأن ملة من الملل اهينت بمثلها ولم يقع من عنصر من العناصر العثمانية اهانة لعنصر آخر بمثل ذلك ! ! وكبر هذه الدعوى وهوّل فيها ماشاء واشار بالنقط هكذا . . . . الى ان ما طواه من ذلك وأغضى عنه هو فوق ما قاله تصريحا وتلويحا . ولو كان يحب الاتحاد والاتفاق بين العنصرين كما ادعى في هذه المقالة لما نشر خبر هذه الاهانة المزعومة بين الترك في جريدة هي أوسع من جريدته انتشارا ، لان ذلك يوغر صدور من يصدقون هذه الدعوى من الترك فتفرج مسافة الخلاف . فمقالته هذه شر من مقالة (خليل حامد) وأضر وأدهى وأمر ، ولا يظهر لنا علة لنشر هذه الدعوى والتهويل بها غير تعمد القاء الشقاق

بين الاختين الشقيقتين : الترك والعرب . فان ادعى انه يريد بذلك تربية المعتدين عليه يقال له كان يكفي في ذلك ان تذكر ماوقع للمحكمة العرفية او العدلية من غير ان تنفث في جريدة طنين سموم التفرق والخلاف ، وما انت بالمقصر في الشكوى وتعقيب الدعوى

ثم انه بعد إثارة هذه الفتن ، وايقاد نار الشقاق والاحن ، أخذ يسخر من العرب بطريقة اخرى غير الامتنان عليهم بمذابح اليمن وتخريبها في عصور الاستبداد التي نرجوان يبدلنا الله تعالى بها عصر العمران والنور في ظل الدستور تلك الطريقة هي استدلاله على اخلاصه وحبه إرضاء العرب بدليلين هما من أغرب ضروب الاستدلال التي لم يبين مثلها في باب السفسطة من علم المنطق (أحدهما) انه قال لناظر الداخلية عند مابلغه خبر تعطيل جريدة «إقدام» ان عنده رخصة باسم « يكي اقدام » ولكنه لايصدرها لأجل ان يرضى العرب وتطمئن نفوسهم لحسن نيته . قال لأن تعطيل الجريدة لايقصد به ورقة مخصوصة او اسم مخصوص وانما الغرض منه إبطال هذه الادارة او تخريبها وأنا أتحمل هذه الخسارة لأجل ان تطمئن قلوب العرب وترضى خواطرهم ! ! ـ وذكر ان ناظر الداخلية قد أعجب بهذه الاريحية وشكر وانه يظن ان سائر الوكلاء مثله في ذلك

لو صدق في قوله لناظر الداخلية ولم يصدر جريدته باسم « يكي إقدام » لما شك أحد من العرب في صدقه بما ذكر من السبب وهو ابتغاء رضاهم واستمالتهم ولكنه قال هذا القول ولم يلبث ان خالفه وأصدر الجريدة فظاهر انه قال ذلك ليسخر من العرب ويلفته الغافل منهم الى ان حكم ديوان الحرب بابطال جريدته لم يكن عقوبة ولا خسارة وإنما كان عبارة عن زيادة كلمة (يكي) في الجريدة ! ! !

وأما الدليل الثاني فهو انه كان عزم على اصدار جريدة عربية واستحضر أشهر شعراء العرب وأكبرهم من بغداد لأجل تحريرها وكلمه كلاما حسنا ثم لم يصدرها . وهذا الدليل أغرب من الدليل الاول وان كان يشابهه ويقابله في كون كل منهما عبارة عن وعد وعد به وأخلف وقول قاله ولم يصدق فيه . ويختلفان على تقدير الصدق في القولين والوفاء بالوعدين اذ لو وفى بالاول لكان دليلا على حبه للعربية كما قال وان لم يكن دليلا على التأليف بين العنصرين . ولو وفى بالثاني لما كان مجرد الوفاء

به دليلا على حب العرب ولا على التأليف بينهم وبين إخوانهم الترك بل كان يجوز ان تكون جريدته العربية أشد تنفيرا للعرب من جريدته التركية فالعرب يعتقدون الآن بأن جريدته متعصبة هاشمة لحقوقهم مبينة لها ومن يقل من يراها منهم أو يعلم بما ينشر فيها فلو نشر جريدة عربية وقال فيها انه يجب على الترك تطهير لسانهم من الالفاظ العربية ، أو نشر فيها تلك المقالات عن السنوسية ، أو مقالات (خليل حامد) أو غير ذلك مما ينشر أحيانا في إقدام من العبارات التي ترمي الى العصبية الجنسية ، لما كانت الا شر آلات التحليل لهذا الجسم الواحد الذي يحيا بروح واحد وإن كان مركبا من عنصرين يسمى احدهما العرب والآخر الترك

لما ظهرت في العام الماضي أسباب سوء التفاهم بين العرب والترك كان من أقواها ما ينشر في جريدة إقدام واشتهر ذلك في سورية ومصر ولكنني على سماعي هذا من الكثيرين لم أكن أسيء الظن بصاحب « إقدام » ولذلك سعيت اليه وأحببت ان انشر في جريدته ما أريد ان أكتبه من المقالات لازالة سوء التفاهم وتأكيد الوفاق والاتحاد بين العنصرين ولكنه أخلف فيما وعدني به من كل ما اكتبه كما تقدم فساء ظني فيه وأكد سوء الظن مقالته التي نشرها في طنين وما فيها من موقظات الفتنة التي أشرنا اليها

كدنا ننجح في سعينا ونزيل تلك الاسباب التي احدثت سوء التفاهم بما كتبناه من المقالات هنا وفي المنار ومن المكتوبات الخاصة الادباء والفضلاء في البلاد العربية فجاءت هذه الحادثة المشئومة فاعادت المسألة جذعة وكان صاحب إقدام عذيقها المرجب وجذيلها المحكك ولم تنته شرورها الى الآن فديوان الحرب العرفي لايزال يطلب الافراد والثبات من طلاب العرب ورجالاتهم للتحقيق في مسألة اهانة صاحب إقدام لأنه لبسها ثوب التعصب الجنسي

ان المقالة الاخيرة المتضمنة للطعن في اعراض العرب قد طير البرق خبرها الى المدن العربية الكبرى وخاضت فيها الجرائد وكان لها من سوء التأثير فوق ما يظن أولياء الامور هنا فاذا كانت نتيجتها هنا ان يعاقب كثير من الطلاب بالحبس

اوغير الحبس او يتوصل بها الى اقفال « المنتدى الادبي » الذي يجتمع فيه جمهور اولئك الطلاب للمدارسة والمذاكرة وتعلم اللغات القومية والأجنبية ليمنعوا من أسباب الترقي كما يظن المتطيرون من الناس ويكتفى من معاقبة صاحب إقدام باضافة لفظ « ديكي » الى جريدته فلا يعلم الا الله ماذا يكون لذلك من سوء التأثير عند الامة العربية وعند كل المخلصين لهذه الدولة

مع هذا كله أكرر في المنار وغير المنار وما قلته للعرب في هذه الديار انه لايجوز لنا بحال من الاحوال ان نجعل ذنب الافراد ذنباً للامة أو أن ننسى ان الشعب التركي الخالص المتدين يحب العرب حب عبادة وان العرب يحبونه حب الاخوة الخالصة . ويجب ان نتقي الانفعال من كلام بعض المتفرنجين الفاسقين أو الملحدين الذين يحركون العصبية الجنسية ليوقعوا الشقاق بين العنصرين فان حدث مايحرك الانفعال طبعا فيجب ان نتقي فيما نقول وما نكتب كل مايبعد أحد العنصرين عن الآخر ونجعل انتقادنا على أشخاص المفسدين المفرقين فان التفرق والتعادي بين الترك والعرب يجلب الخطر عليهما معا وعلى الدولة وان جهل المتعصبون، وتجاهل المفسدون »

* * *

﴿ اليمن ودماء العثمانيين المهدورة فيه ﴾

اننا بعد أن كتبنا تلك المقالة في الرد على صاحب جريدة « إقدام » وخطئته في التفرقة بين الترك والعرب وتوصله الى ذلك بالافتراء على التاريخ في مسألة الحرب الصليبية والمخاتلة في مسألة اليمن أبينا ان نرجع الى التاريخ فنقتبس منه قبسا يضيء سبيل الحق فيما أشرنا اليه هنالك من كون الدماء التي سفكت في اليمن لم تكن دماء الترك وحدهم ولم يكن فيها شيء لمصلحة العرب لانها خربت بلادهم ولم تعمرها وبدئت بالغدر والظلم والتخريب واستمرت على ذلك الى اليوم، ولا لمصلحة الترك لأنهم لم يستفيدوا في مقابلة تلك الدماء التي سفكوها والاموال التي انفقوها من خزانة الدولة فائدة

مادية ولا معنوية كما نوه بذلك مجلس المبعوثين في احدى جلسات الشهر الماضي اذ قال عبدالحميد افندي الزهراوي مبعوث حماه : لو عصرنا تراب اليمن لقطر دماء عثمانيا فماذا استفدنا من ذلك ؟ ؟

ويظن بعض الناس ان معظم هذه الدماء سفكت في عهد السلطان عبدالحميد الذي انتهى اليه الاستبداد في هذه الدولة وأقله في زمن السلطان عبد العزيز قبله. وقد ذكرت هذه المسألة هنا فقال بعض الناس انها بقيت نصف قرن قلت بل هي بقيت أربعة قرون ثم رجعت الى التاريخ فجئت منه بالشهيد الآتي

جاء في (كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني) اي فتح اليمن لقطب الدين الحنفي المكي الذي قال في مقدمته انه خدم به سدة السلطان سليم بن السلطان سليمان . (وفي مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا نسخة منه كتب في طرته بالذهب انها اهديت الى خزانة كتب الصدر الاعظم محمد باشا في عصره)

ان ابتداء التصدي لفتح اليمن كان في عهد السلطان سليمان (القانوني) فانه لما بلغ السلطان استيلاء الافرنج من البرتغال على بلاد الهند أمر باعداد اسطول في مصر وتجهيز عسكر فيه لمحاربتهم وجعل قائد هذا العسكر بيكلاربكي مصر سليمان باشا الخادم وهو احد مماليك السلطان سليم خان بن بايزيد خان الذي « لم يتعلم من اخلاق سيده غير الفتك » ولم يستقر في باله مما شاهده منه غير اراقة الدماء والسفك » فاحتال قبل سفره بالاسطول على الامير جانم الحمزاوي الذي كان من اعظم الناصحين في خدمة السلطنة وأمر بذبحه فقطعت رقبته بسيفه وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله ! ثم قطع رقبة ولده يوسف امير الحج وانما قتلهما بعد ان كتب الى السلطان بأنه شم من الامير رائحة العصيان ويخشى ان يطيعه العسكر لاحسانه اليهم فكتب اليه السلطان « ادفع شرهما » ونسي السلطان ان هذا الامير هو الذي كان سبب اصلاح المملكة عند عصيان أحمد باشا وانه لم يوافقه على العصيان . ثم أمر الباشا بسلخ الوالد والولد وحشوهما تبنا وتعليقهما على باب زويلة !! (*

(*) هو المعروف الآن ببوابة المتولي بمصر

(قال المؤلف) « ثم ان سليمان باشا بعد قتله جانم الحزاوي تملح ايضا بصلب الامير داود بن عم أمير الصعيد من غير جرم أتاه ، ولا ذنب سواه ، غير كثرة أمواله ، وبذل يده وسعة حاله ، فطمع الباشا سليمان ، فطلبه الى الديوان ، فلما جاء أخذ هداياه أولا ، ثم عاتبه لقصد قتله معللا ، فقال ترسل الينا قحا غير نظيف ؛ فقال أنا ماجئت الا بقمح مثل الجوهر اللطيف ، فأمر به الى باب زويله وعلق في عنقه منديلا فيه قليل قمح وصلبه هناك وأحاط بجميع أمواله وخزائنه ، وظفر بكنوزه ودفائنه ، وقتله وهو مظلوم ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وكان احسن امراء الصعيد كثير البر والصدقات ، محبا للخيرات والحسنات ، يحسن كل عام الى كل واحد من علماء جامع الازهر ، والمشايخ المسلكين في ذلك القطر الازهر ، بالخمس مئة من الذهب فما دونها » الخ ماذكر من فضائله وفواضله

ثم سافر سليمان باشا الى جده ومنها الى عدن « وكان صاحبها يومئذ عامر بن داود بقية بني طاهر ملوك اليمن سابقا . . . فلما بلغه وصول سليمان باشا للغزو في سبيل الله ، وقطع جادرة الافرنج عن الاضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ، وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد ، ما أراد من الازواد ، وتوجه هو ووزيره السلام عليه الى الغراب (نوع من المراكب) الذي هو فيه فبمجرد ان رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح أمر عسكره بدخول عدن وأخذها فلما وصل اليه عامر ألبسه ومن معه خلعا ثم أمر بصلبهم على الصاري في الغراب الذي هو فيه وذهب العسكر داره ثم شرعوا في نهب البلد » وعد البلد من فتوحاته وأقام فيها نائبا وكتب على بابها انه فتحها سنة ٩٤٥

ثم ذكر المؤلف وصول خبر غدر الباشا الى أهل الهند فنفر منه الناس وكانوا استعدوا لنصره وجمع العسكر له ثم كادوا له حتى رجع عنهم الى اليمن قال « وكان سليمان باشا خوارا خوافا لم يعهد منه شجاعة ولا إقدام وإنما كان يفتك بمن وقع في يده مأسورا مربوطا ، فركبه من ذلك (أي مما بلغوه اياه كيدا له وإيهاما وليس هذا محل شرحه) خوف عظيم وتفرقت عساكره وصاروا يخدمون خوانين الهند طمعا في كثرة العلوفة »

ثم ذكر خبر وصوله بمن بقي معه من العساكر الى « مخا » وغدره بصاحب اليمن قال « وأرسل الى الناخود احمد بخلعة ومرسوم فيه الامان وأن يكون نائبا عن السلطنة بمملكة اليمن كما كان وان يصل بنفسه بدوس البساط ، ويحصل له كمال الشرف والانبساط ، فلما وصل اليه المرسوم استشار أخصاءه فكلهم أشار عليه بعدم المواجهة وقالوا له انه لم يكن عنده شيء من الخيل ونحن عندنا سبع مئة حصان فان قاتلنا قاتلناه ، وان رضي منا بالاطاعة أطعناه ، فلم يستصوب هذا الرأي وركب اليه للاقائه هو وخاصة عبيده وكانوا نحو الخمس مئة ووصل اليه طائفا لا بباخلعته هو وولده وولد اسكندر رموز وهما صبيان دون المراهقة وقدم اليه من هدايا اليمن ماقدر عليه. فلما دخل عليه أمر بقتله في الحال وذلك في ثامن شوال سنة خمس وأربعين وتسع مئة. فشتت عبيده فنادى فيهم مناد من أراد من العبيد السود العلوفة السلطانية عند الوزير فليأت ، فاجتمعوا بأسرهم ودخل معهم من ليس منهم طمعا في العلوفة وأدخلوا حوشا كبيرا له باب واحد وصاروا يخرجونهم اثنين اثنين ويكتب اسمهما الكاتب بحضوره ويبرز بهما الى خارج الباب فيرمي رقابهما ولم يشعر بهما أحد منهم ممن داخل الحوش ولم يعلموا مايفعل بهما عند الباب الى أن قتل الجميع !! »

ثم ذكر عوده وحجه وما فعل في الحرم من الالحاد والظلم والنهب والسلب من أهل عرفات الحجاج ومن أميري الحج الشامي والمصري ثم عودته الى مصر وافتخاره امام الوزير لطفي باشا زوج أخت السلطان سليمان بفتوحاته لعدن واليمن واتصاره ولا ندري على اي الاعداء انتصر وما كان صاحبا عدن واليمن الا فرحين به مستأمنين له من غير ضعف ولا خوف . ثم قال المؤلف رحمه الله مانصه وهو الحكمة البالغة والعبرة المؤثرة :

« ولو نظروا في حقيقة الحال ، وتدبروا ماسيؤول اليه في المآل ، علموا انهم كانوا في غنى عن هذا العناء ، وتيقنوا أنه جرّ اليهم محنا وإحناء ولقد سمعت المرحوم محمد حلمي المقتول دفتر دار مصر يفاوض المرحوم داود باشا في حدود سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة فقال : مارأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا كلما جهزنا اليه عسكرا ذاب ذوبان الملح ولا يعود منهم الا الفرد النادر ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر

من زمن ابراهيم باشا الى الآن فرأينا قد جهز من مصر الى اليمن في هذه المدة ثمانون ألفاً من العسكر لم يبق منهم في اليمن ما يكمل سبعة آلاف نفر » اه كلامه

(قال المؤلف) قلت وقد تجهز بعد ذلك الى هذا الزمان أضعاف ما ذكره محمد بك رحمه الله تعالى وهلم جرا الى آخر الزمان . وهذا سر إلهي لا يعلم حقيقته الا الله تعالى . والذي يلوح للخاطر أن سبب نقصان بركتهم ، وتقهقر عددهم ، ما يرتكبونه من ظلم العباد ، وما يتصاعد من المظلومين من الأدعية التي تصدر عن قلوب منكسرة ليس لها ناصر الا الله تعالى ، والله سبحانه يلهم حكامنا وامراءنا العدل والانصاف ، ويعدل بهم عن الجور والاعتساف ، انه مجيب الدعوات ، ومقيل العثرات ، اه

(المنار) إن أعجب ما في هذه النبذة التي اقتبسناها من هذا التأريخ قوله « وهلم جرا الى آخر الزمان » فلله در المؤرخين إن أشعة بصائرهم لتخترق حجب القرون ، فتبصر ما وراءها وتخبر بمضمرات الغيوب ، فقد صدقت حوادث هذه القرون الاربعة قول الرجل وما أراه الا كان يعتقد بعلة خفية لهذا الخذلان في تلك البقعة لهذه الدولة التي كانت في تلك الايام أقوى دول الارض ولعلها هي ما أشار اليه في مقدمة الكتاب من الاحاديث الصحيحة الواردة في اليمن الناطقة بأن الايمان يماني والحكمة يمانية وأن نفس الرحمن يأتي من جهة اليمن على ان الرجل كان متعصبا للدولة على الزيدية مفتخرا بما كان يحصل لها من الانتصار ، متألما مما كان يحدث لها من الانكسار ، ذاما للزيدية مشنعا عليهم بالبدعة ، مادحا للدولة وعسكرها بنصر السنة ، ولم تكن عنده نعرة جنسية عربية فان الاسلام نزع من قلوب العرب هذه العصبية الجاهلية فلم تعد اليهم حتى اليوم بل نرى المؤلف يذم عرب اليمن احيانا مع التعبير عنهم بالعرب ، ويمدح الترك معبرا عنهم بالترك ، ويبتهج بنصرهم ويدعو لهم وهذا شأن العرب الى اليوم في كل البلاد يفرحون بنصر الدولة على عرب اليمن وان ظلمت هنالك العباد ، وخربت البلاد ، حتى انهم كانوا يقولون في السلطان عبد الحميد

لا أزال الإله دولته الغرّا (م) وان كان قد طغى وتجبر

وقد قرأنا في جريدة الاصلاح التي تصدر في سنغافوره كتابة من عهد قريب لبعض عرب حضرموت يتمنون فيها ان تعجل الدولة باحتلال بلادهم والاستيلاء عليها . ولكن متعصبي فروق امثال صاحب جريدة إقدام مجدون في التفريق فهم الذين يعيدون بأقوالهم وأفعالهم الى العرب عصبية الجنس الا اذا تدارك رجال السياسة هذا عاجلا كما نصحنا لهم أمس حين جئنا العاصمة ، ولما يستبينوا النصح في ضحى الغد

اتقوا الله ياساسة الدولة وانزعوا هذا الوسواس من صدوركم ، اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ، اتقوا الله فانكم تقولون انا في حاجة الى المساواة والاتحاد مع جميع العناصر العثمانية ، وكيف يكون الاتحاد اذا لم يكن قبل كل شيء بين العرب والترك؟ اتقوا فنحن في أشد الحاجة الى الاعتصام بالاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين والاخوة العثمانية مع جميع العثمانيين ، فلا بد من السفهاء مايفنيه الحكماء ، فان الهدم أسهل وأسرع من البناء ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح العقل على الهوى

* * *

﴿ دار العلم والارشاد ﴾

وجبوت في النبذة الثانية من رحلتي أن أنشر في الجزء الثالث من المنار نظام مدرسة « دار العلم والارشاد » بناء على الرجاء في الشروع بالعمل في ربيع الأول . وقد حدث بعد أن كتبت ما كتبت ما أيأسني من مساعدة الحكومة بعد وعدها القطعي او كاد . ثم عادت المياه الى مجاريها والمرجو من فضل الله تعالى ان يكون الشروع في شهر ربيع الآخر وقد تمت المقدمات في ربيع الاول والله الموفق وهو المستعان

﴿ تصحيح ﴾ سقط من (ص ١٤٧ ج ٢ م ١٣) سطر كامل موضعه قبل السطر الاخير ونذكر نصه ليكتب بالقلم وهو :

« اسعد أفندي أمين الفتوى ومصطفى افندي اودوشلي مستشار المشيخة »

الفصل الثامن عشر (*)

(عظم المنة باتساع المنة)

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما تقوى قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري ، يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المدن ، ويجب بحسب حدودها قلب السُّنن

إي لعمر الحق لا غرابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نعم ألمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح لخديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حافٌّ به ، والايناس صافٌّ من حوله ، وناهيك أن في منزله

(*) تابع للمنشور في (ص ١٥٥ م ١٣) من سيرة السيدة خديجة

الذي اليه يثوب روحها شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره بادىء بدء هو روح السيدة « خديجة »

لم تكن هذه السيدة أقوى منه من بطلها الكريم ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهة ، فأخذته بين حيرة وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . وأما هي فسمت بالامر سماعاً ، ووجدت للتفكر فيه مجالاً ، ولإيناس الرفيق مقالا

ولو بُدهت امرأة بما بُدهت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم وكان ينقصها ما حلاّها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما أعطاها من قوة التمييز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد أتمت العمل من أوله الى آخره ونسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لانها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به

تفكرت «خديجة» في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها وللامل ههنا وجه وللخوف وجه : فالامل يقول لها ان الامين لصادق وان روحه لزكية قوية لاسلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما يأتيه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأي شيء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لاضاءة المشارق ، يفيض النور على القبائل والشعوب ، انت اللهم على هذا قادر اذا أردت

ولا مانع لما أعطيت ! والرجل يقول لها ماهذه المثال التي أخذت حبيب قلبي فراعته ، اني لأخشى ان يكون أمراً جسمانيا بحتا كما قد يعرض للأفراد ، اني لأخاف أن يصبح هدفا لرمي الاضداد . ولكن سرعان ماغلب الأمل على الوجل ، والمنة على الضعف ، ووشكان مابدت لها وجوه الادلة على أن ما أتى بها الكريم هو بريد خير عظيم ، ومقدمة فلاح عميم ، وكانت أدلتها على ذلك عقلية ونقلية تقدمت العقلية منها على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله مايخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الامانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ، هو نتيجة تفكر جميل قد أعطى الثمرة سريعا ، هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى ساذجا نظيفا لاغبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظما ، ومن أجلها وقعا ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا

يستغني كثير منها عن تشريح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . فحينئذ يلوح لها انطواء الافادات الغزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع ويحق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما اظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها ان الله عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي تعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل اعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافىء الله فاعل الخير بغير الخير ؟ ان هذا لا يكون على حسب تفكرها

(٤)

ونتيجة قياسها أو أقيستها ان هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الشر وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

(شرح حكمة السيدة خديجة)

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد لا تبلغ سفن العبارات شيئا من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي لتستعين النفس على بث جهاله عز وجل وتمجيدها اياه وليزداد شوق النفوس الى الكمال، وتعبدها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات، وان حقيقته لهي فوق المجاز والاستعارات

لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري أنى يبلغ الواصفون صفة من كنهه عجيب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد قد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه وكذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علوا كبيرا

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح ما درج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الامر عاما لا فرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضا لان التفاهم في هذه الابواب لا يستغنى عنه ولا يمكن الا بالعبارة

* * *

الى الله سبحانه يرجع كل شيء. فهو أنشأ الانسان على هذا المثال، وهو علمه ما قد عرفه الى الآن وخلاصة ما عرفناه من ظواهر التكوين أن البارئ، المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميزا عليما أظهر الاشياء أمامه مبنية على التضاد، وجعل تميز الاشياء بأضدادها، وأودع فيه غريزتين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان وضده، وجعل مع الاستحسان الشوق والحب، ومع ضده النفرة والبغض. واقتضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تميز الانسان أن تختلف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم التضاد المسمى أحدهما خيرا والآخر شرا. واحتاجوا الى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم الى معرفة هذه الجواذب والدوافع. ومن نحى منهم نحوه بها وسماه على موجب هذا العلم سموه حكيما

وهل جائز أن يكون بعض افراد الانسان حكيما والبارئ غير حكيم؟ كلا، ثم كلا. بل ليست حكمة الانسان الا من الله، والله هو العليم الحكيم.

نعم بيد أننا فقهنا معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس لعلم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال لان الانسان انما يصنع ما يصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذي اراد ظهور الاشياء بهذا النوع فلم يرد هذا الحاجة او جدوى تعود عليه. ثم انظر تجد أننا نسمي ما يصنعه الانسان لا لفائدة عبثا ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثا مع اننا لا نرى فائدة في عمله لانه لاستغنائه وتقدسه، ولا للمصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا من القول بأن له حكمة في كل شيء ونعلم من هذا وضوح عجز البارة في كشف غدور هذه المخلوقات مع عدم الاستغناء عنها

ثم اذا رجعنا النظر الى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكر والتذكر ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى اذا تأمل نظاماً بديعاً في هذه الظاهرات ويرى له نصيباً في كل شيء منها

فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أما عبو الحكمة فيمعنون نظرهم ويتلمسون الاسرار في تشكلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوضاع. ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت انظارهم الى استجلاء فوائدها ثمة أيضاً لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثاً بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئاً آخر فكأن الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل وتقدست اسماؤه

* * *

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة، حاد الفكرة، فهو يكون كثير الذكر، قليل النسيان، والكائنات كلها عبر، وتعليم لمن تذكر. وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل مره، ويؤتاه كل احد في كتاب يكتب، او خطاب يخطب، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة تجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حامل لوائها

* * *

كانت السيدة «خديجة» ذات نصيب من هذه الهدية العليا الربانية هدية الحكمة، وقد رأى القارىء آنفا شيئا من حكمتها وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال، ونزيد المقام حظا من ذلك الجمال:

(١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع. وحق ما رأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يُعرَف فاقتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها. والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتا عظيما قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لا يدري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجبا

ومن المشاهد أن الباري، عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقي هذا النوع ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها

من أضدادها . انا قد شاهدنا ماجرى ويجري من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم ، فوجدنا الغلبة للثانية على الاولى ، وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان لا يفقه غير حاجته الى عشب يسد به ألم جوعته ، وماء يرد به ألم عطشته ، أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، ويحسب من حركاتها ما هو أقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، ودع عنك توصله الى استخدام الروح الساري في هذه الظاهرات الدنيا نفي به الكهرباء ودع عنك استفادته من الارواح العليا . واتيانه بواسطتها بالانباء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة «خديجة» أن الباري عز وجل مطلع على أعمالنا وعالم عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . . ومن تذكر ما حررناه في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معانٍ من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالموجودات كلها وقد جعل لها سننا من جملتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده ، وما بعد عنها مكروه لديه . هيهات ! هيهات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لا ضد له ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ما ينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خلق الضار والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أمعن النظر بكل ماسلف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، غير متبجح لنقص حظ ، ولا متمال بزيادة نصيب ، فلا يكون الا محبوبا تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكافىء فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة ، وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار مايلقى المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء وأما في هذه الحياة فمنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول ان فاعل الخير يبتلى في هذه الحياة بشرور

ونحن لا ينبغي ان ننسى أن مذهب هذه السيدة مسوق لفعل الخير لان المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حبا فيه . واليه أذهب ، وبه أثق ، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملا في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تعب الرفيق القارىء ، ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو الا روح خير وسلام ، وفلاح ونعمة واكرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم